العرب وذهنية الغرب

نظرة في كتاب دوتي[1]

ينظر فريق من الغربيين الى العرب ـ ولا سيما عرب الجزيرة ـ نظرهم الى الشعوب التي في أمزجتها وخصائصها عيوب تحبسها عن التقدم في طريق المدنية وتعيقها عن اللحاق بالشعوب الغربية في مناهج الحضارة الحديثة

ولتكوُّن هذه الذهنية أسباب : أهمها صعوبة تفهم الغربي نفسية الساميين وأساليبهم في الحياة الاجتماعية ، للفروق المزاجية بين السلالات الغربية الآرية والسلالات السامية ، ولما رسخ وتأصل في العقلية الغربية من التقاليد المتوارثة والعادات الاجتماعية غير المعروفة في الشرق . ومن طبع الانسان الميل الى ما يشبهه ، والنفور مما لا يعرفه أو يمارسه في شئون حياته ؛ فاذا لم يتغلب على نفوره الزمن وتأثيرات البيئة الجديدة ـ بواسطة طول مكثه فيها وتكرار ممارسته لمآتيها وعاداتها ـ يخرج منها وفي نفسه ما يشبه الثورة على ماشهد وسمع ، وفي قلبه شيء من الحقد والنقمة على ما خبر من جديد وغريب . أضف الى هذا أن الغربيين يرثون شيئاً من العداء القديم بين الشرق والغرب فيما يتلقونه منذ الصغر من التعاليم عن الشرق وأهله وأديانه وعن الحروب التي نشبت في القرون الخوالي بين الشرق والغرب . وهذه الامور تهيء في نفوس الغربيين متسعاً لاستقرار التهم التي تلصق بالشرق والافتراءات التي تقال عن ساكنيه . وقد أصاب العرب النصيبُ الاوفر من هذه النقمة وهذا الحقد الخفي لانهم أرباب حضارة خاصة ، لا تتفق وحضارة الغرب في كثير من أصول الاحوال الاجتماعية ، وفي بعض أساليب التفكير واتجاهات الخيال . وليس ثمة بقية ذات أثر يذكر من حضارات الشرق

(1) Wanderings in Arabia by Charles M. Daughty.

القديمة الا الحضارة العربية وما اشتملت عليه من مذاهب الفكر والعقائد الدينية والانظمة العائلية . واذا استثنينا بعض الشعوب الصفراء والسوداء والسمراء في الشرق الاقصى وافريقية والهند وجزر المحيط الهندي يصح ان نعتبر العالم الشرقي عالماً عربياً في دينه وحضارته وأنظمته الاجتماعية ، ولذلك كان العرب — وهم روح هذه الحضارة ومنشأها — هدفاً بارزاً لسهام النقد وغرضاً أوليا لنقمة أوربا وتعصبها الديني والذهني . ولعل نفور سواد الشرقيين من الحضارة الغربية يرجع الى علل تخرج عن هذا الوصف . على أن نفسية الشرق دخلت في طور جديد من التقرب الى الحضارة الغربية فكثر فيه الداعون الى اعتناق مبادئها والسير على مناهجها كما أنه قام في الغرب أيضاً كثيرون من انفاذ العلماء وجبابرة البحث والاستقصاء يمزقون ستائر الأوهام العالقة بالذهنية الغربية بما يوصلهم اليه البحث والعلم من روائع ما في الشرق وفي أصول حضارته الذاهبة وفي مواهب أبنائه الطبيعية . ولعل هذه الذهنية المريضة — بما خالطها من عيب وشابها من خطأ — شر ما مني به العلم فيما يتعلق بالشرق وشعوبه ولا أدلّ على صحة هذا القول من وفرة الاوهام وكثرة الاخطاء التي تعترض الشرقي بل تصدم شعوره صدماً في قراءته لكتاب عن الشرق وضعه غربي من أصحاب هذه الذهنية . وهذا ما شعرت به في أثناء قراءتي لكتاب الرحالة الانكليزي تشرلس م . دوتي الذي يعتبره الانكليز الآن خير ما أخرج الناس من كتب الرحلات في جزيرة العرب

وضع دوتي مؤلفاً ضخماً عن طوافه في نجد والحجاز وصحراء سورية أودعه وصفاً دقيقاً لرحلته ومشاهداته وأفاض فيه بوصف حياة البادية وأساليب المعيشة عند البدو وعاداتهم وطبائعهم وما الى ذلك مما تلذ معرفته وتفيد . غير أن الحقائق في بعض ما كتب — ولا سيما فيما يتعلق منه بالدين والطباع والعادات — كانت فريسة الذهنية التي تقدم وصفها وضحية ما فيها من خطأ وعوج فما كان يجب الرجوع

في تعليله الى الجهل والعزلة عن العمران نسبه الى نقص أو ضعف في طبيعة العرب من حيث هم ساميون وما كانت أسبابه الجهل باصول الدين الاسلامي أو خشونة الحياة الصحراوية عزاه الى علة في الدين نفسه . ولا يتسع المقام لتفنيد جميع ما ذهب وهمه اليه من الاغلاط ، على أني سأقدم للقارىء أمثلة من أقواله في الجزء الآتي من الزهراء بعد أن آتي في هذا الجزء على وصف موجز لرحلته وكتابه

قام دوتي من دمشق في سنة ١٨٧٥ م مع قوافل الحج الشامي ميمماً شطر تبوك ومدائن صالح ومنها قصد الى تيماء مع فريق من عرب الفقراء ثم زار حائل عاصمة آل الرشيد في جبل شمّر ومنها انتقل الى خيبر حيث اضطر الى الاقامة بضعة أشهر ثم عاد الى حائل فطرد منها فلجأ الى القصيم وبلغ بُرَيدة أكبر قرى القصيم الشمالية ولكنه لم يُمهل طويلا وارغم على السفر الى عُنيزة حيث أحسنت وفادته بادىء بدء ثم طرد منها بسبب هياج الجمهور عليه ، واستدعي بعد ان غادرها بامر من أميرها الشيخ زامل الى قرية في ضواحيها حيث أقام الى ان حل ميعاد سفر قافلة جرت العادة ان تقوم مرة في موسم معين كل سنة من عنيزة الى مكة تحمل السمن فصحبها الى الحجاز وعرّج على الطائف قبيل وصول القافلة الى مكة ومن الطائف أرسله الشريف بطلب منه الى جدة حيث انتهت رحلته الكثيرة المشاق والآلام . وكان يسافر في البلاد ويجول معلناً نصرانيته بخلاف ما فعل كثيرون من سياح الاوربيين الذين تظاهروا بالاسلام وانتحل لنفسه اسم « خليل » مدة قيامه بهذه الرحلة . وألف دوتي في رحلته هذه كتابا كبيرا (Arabia Deserta) اختصره ادورد غارْنَتْ Edward Garnet بموافقته فوقع المختصر في مجلدين ضخمين يشرف عدد صفحاتهما على الستمائة [1] والكتاب لايعد ذا قيمة كبيرة من الوجهة الجغرافية مثل كتاب فيلبي Philby (قلب جزيرة

(١) اسم المختصر Wanderings in Arabia

العرب) غير أنه على مافيه من عيوب يعتبر خير ما كتبه كاتب في هذا العصر عن البدو لاحتوائه على وصف دقيق مستفيض للحياة البدوية والشئون الاجتماعية في الاماكن العامرة من نجد والحجاز مما لم يسبق الى مثله مع كثرة من كتب ووفرة ما كتب عن بادية العرب

والاوهام الكثيرة التي وقع فيها دوتي لاتحط من مقام كتابه من حيث توخيه الصدق والاخلاص فيما كتب . واسبابها ترجع الى نفسيته المضطربة بالمشقة والخطر والوحشة والى ذهنيته المسممة بما داخلها من خطأ مقيم وخالطها من وهم قديم ، والى ضآلة خبرته وقلة معلوماته الاصلية عن الشرق والشرقيين

وقد تناول في كتابه وصف مدائن صالح وآثارها وتيماء حيث اكتشف حجر تيماء الاثري المشهور [1] وأفاض أيضا في وصف حائل وخيبر وبُريدة وعنيزة والطائف وما الى هذه الاماكن من القرى والدساكر التي أقام فيها أو مر في طريقه منها وأتى بوصف شائق مستوف للحياة البدوية يشتمل على القضاء والعادات والتقاليد والمغازي والضيافة والطعام والشعر « الحُميني » وغير ذلك ولم يفته كثير من الملاحظات عن الخيل والابل وسائر المواشي والحيوانات البرية والاشجار والاعشاب والمراعي والمياه وما اليها . وكانت زيارته لحائل في أيام محمد بن الرشيد المشهور ، فتكلم عن حكمه ونفوذه وأحوال حكومته وأورد عنه في كتابه حكايات كثيرة بعضها ذو خطورة من الوجهة التاريخية . ووصف الحياة الاجتماعية في نجد الشمالية والقصيم والاحوال الاقتصادية والزراعية وتدرج الى ذكر امور تفيد معرفتها عن زراعة النخيل وغيرها وتناول بالنقد في غضون كلامه عن خيبر وطريق الحج ادارة الدولة العثمانية ووصف أسلوب معيشة حراس الامن في القلاع والمخافر الواقعة على هذه الطريق وصفاً دقيقاً وبالاجمال فقد أفاد

(٢) استولى هوبر Huber الفرنسوي على هذا الحجر في سنة ١٨٨٣ وقدمه لمتحف اللوفر

في كتابه حيث اختصر وحيث أفاض ونوخّى الصدق والاخلاص حيث أصاب الوجه في بحثه وحيث أضله الوهم فأخطأ الصواب . ولكن لنا مع ذلك ان نقول انه أضل وأضر باعتبار التأثير الذي يحدثه كتابه في النفوس لانه ساعد على ارساخ ما في اذهان الغربيين من التصورات والاوهام الفاسدة عن الشرق ولا سيما فيما يتعلق بالدين الاسلامي، تلك الاوهام التي كانت ولا تزال مصدر بلايا ومحن للشرق والغرب على السواء

واللهجة السامة المفعمة بروح الضغينة والحقد التي استعملها في كتابه حيث تكلم عن الدين وما يتعلق به تضطرنا الى ان نتحامى ايراد أمثلة من حملاته المتكررة تفاديا من إيلام الشعور ، وحسب القارىء ان يعلم ان دوني تجشم العظيم من المشاق وقاسى الكثير من صنوف التعب والعناء في طوافه على قلة ماله في بلاد كثيرة المفاوز والمخاطر ولاقى مع ذلك شيئا من الاضطهاد بسبب مصارحته الجهلة من سكان القرى بدينه واعلانه الناس حيث حل انه على غير الاسلام . حسب القارىء ان يعرف هذا ليجد في كرمه متسعا للعذر، ولكن المرء يحار لدى التفكير في عقلية هذا الرجل الكبير في صبره وجهاده ، ولا يسعه بعد ان يقرأ أقواله الا أن يحكم بانه مع هذا الكبير صغير من حيث خضوعه لمؤثرات يجدر برجال العلم ان يتنزهوا عنها في بحثهم عن الحقيقة

قائم المقام العسكري
فؤاد سليم

﴿ مواد الزهراء ﴾

اضطرتنا كثرة المواد الى ارجاء كثير من المقالات ، ومنها خاتمة « ذكرى أبي بكر الصديق رضي الله عنه » والقسم الأخير من محاضرة الاستاذ الراجكوتي وأبحاث أخرى جديدة بعضها من قلم تحرير المجلة والبعض الآخر من أقلام أصدقائها الافاضل وموعدنا بها العدد الآتي ان شاء الله